المجلة العلمية لكلية التربية / جامعة سرت/المجلد (5) العدد (1)
Faculty of Education journal / Sirte University (Vol (5) No (1))
Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v5i1.3817)
ISSN : 3740-2791
26 يناير 2026

الإسلام والغرب: رُؤية تاريخية لتطور الدافع الديني والاقتصادي بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر

د. محمود إدريس علي بك / كلية الآداب والعلوم/ قصر الأخيار/ جامعة المرقب/ليبيا mabek@elmergib.edu.ly

الملخص

يتناول هذا البحث بالدراسة والتحليل طبيعة العلاقة المتغيرة بين العالم الإسلامي والغرب خلال فترة حاسمة تمتد من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي. يهدف البحث إلى تتبع تطور الدوافع المحركة لهذه العلاقة، وتحديداً التحول من الهيمنة الواضحة للدافع الديني إلى الهيمنة المطلقة للدافع الاقتصادي.

يجادل البحث بأن الإرث العميق للحروب الصليبية (المبحث الأول) لم يؤسس فقط لذاكرة الصراع الديني، بل حمل في طياته بذور الدوافع الاقتصادية المبكرة (عبر المدن الإيطالية). ثم شهد عصر الاستكشافات الجغرافية (المبحث الثاني) اندماجاً كاملاً بين الروح الصليبية الموروثة (الاسترداد) والهدف الاقتصادي المتمثل في كسر الاحتكار التجاري الإسلامي، وهو مشروع تم تبريره قانونياً عبر "المراسيم البابوية" وتطبيقه بالقوة البحرية المباشرة.

ويخلص البحث إلى أن الحملة الفرنسية على مصر عام 1798م كانت نقطة تحول أيديولوجية، دشنت (المبحث الرابع) لمرحلة الهيمنة الاقتصادية المطلقة، المدفوعة بمتطلبات الثورة الصناعية (الحاجة للمواد الخام والأسواق). وفي هذه المرحلة، تم استبدال الغطاء الديني القديم بغطاء أيديولوجي علماني جديد ("المهمة الحضارية" والاستشراق)، وتطبيق الهيمنة الاستعمارية عبر أدوات جديدة مثل "دبلوماسية الديون" والاحتلال العسكري المباشر، مما خلق اختلالات هيكلية وإرثاً معقداً من التبعية الاقتصادية والسياسية لا تزال آثاره ماثلة حتى اليوم.

الكلمات المفتاحية

العالم الإسلامي،
الحروب الصليبية،
الدوافع الاقتصادية،
الاستعمار الأوروبي،
الاستشراق.

Islam and the West: A Historical Perspective on the Evolution of Religious and Economic Motivations between the Fifteenth and Nineteenth Centurie

Mahmoud Idris Ali Bek / Faculty of Arts and Sciences / Qasr Al-Akhyar
Al-Merqab University – Libya

Abstract

This study examines and analyzes the evolving nature of the relationship between the Islamic world and the West during a critical period spanning from the fifteenth to the nineteenth century CE. The research aims to trace the development of the driving forces behind this relationship—specifically, the transformation from the clear dominance of religious motivation to the absolute dominance of economic motivation.

The paper argues that the deep legacy of the Crusades (Chapter One) not only established a lasting memory of religious conflict but also carried within it the seeds of early economic motives (through the Italian city-states). The Age of Geographical Discoveries (Chapter Two) then witnessed a full fusion between the inherited Crusading spirit (the Reconquista) and the economic objective of breaking the Islamic commercial monopoly—a project legally justified through "Papal Bulls" and implemented through direct naval power.

The study concludes that the French campaign in Egypt in 1798 marked an ideological turning point, inaugurating (Chapter Four) the phase of absolute economic domination driven by the demands of the Industrial Revolution—the need for raw materials and markets. In this stage, the old religious cover was replaced by a new secular ideological one—the civilizing mission and Orientalism—and colonial dominance was exercised through new instruments such as "debt diplomacy" and direct military occupation. These processes produced deep structural imbalances and a complex legacy of economic and political dependency whose repercussions remain evident to this day.

Keywords

Islamic World,
Economic Motives,
European Colonialism,
Industrial Capitulations,
Orientalism.

المجلة العلمية لكلية التربية / جامعة سرت/المجلد (5) العدد (1)
Faculty of Education journal / Sirte University (Vol (5) No (1))
Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v5i1.3817)
ISSN : 3740-2791
26 يناير 2026

المقدمة

تُمثل العلاقة بين الإسلام والغرب إحدى أكثر الظواهر التاريخية تعقيداً واستمرارية، فهي علاقة ممتدة ومحورية، شكّلت جزءاً كبيراً من تاريخ العالم. وقد تراوحت هذه العلاقة بين التعاون والتنافس، وبين التثاقف الحضاري والمواجهة العسكرية.

وفي رأيي فإن إطار "الإسلام والغرب" كعنوان وموضوع للبحث يبدو أكثر دقة من إطار "العرب والغرب"، لأن الرابطة الدينية كانت، في كثير من الأحيان، هي المعلم الأكثر بروزاً في تحديد هوية طرفي العلاقة، وشحذ دوافع الصدام والتوسع، خاصة في المراحل الأولى من هذا التفاعل [فولر وليسر، الإسلام والغرب بين التعاون والمواجهة، ص. 34].

يطرح هذا البحث إشكالية مركزية تتمثل في فهم كيفية وأسباب تحول المحركات الأساسية للعلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي خلال الفترة الحاسمة الممتدة من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر. فكيف انتقلت الدوافع من كونها دينية بشكل شبه كامل في الخطاب، إلى دوافع اقتصادية وسياسية بشكل رئيسي؟ وما هي المحطات التاريخية الفاصلة في هذا التحول؟ وكيف تم استخدام الخطاب الديني، ولاحقاً الأيديولوجيات العلمانية، لتبرير أهداف اقتصادية توسعية في جوهرها؟

تنطلق فرضية البحث من أن العلاقة بين العالمين الإسلامي والغربي لم تكن تحركها دوافع أحادية البعد، بل كانت هناك ضفيرة متداخلة من الأسباب الدينية والاقتصادية والسياسية. إلا أن ثقل كل دافع قد تغير بمرور الزمن. ففي حين كانت الحروب الصليبية تمثل ذروة المواجهة ذات الصبغة الدينية [أنظر: Armstrong, Holy War]، فإن الفترة التي تلتها شهدت تحولاً تدريجياً، ولكن حاسماً. لقد أصبحت المطامع الاقتصادية المتمثلة في السيطرة على طرق التجارة والموارد والأسواق هي المحرك الأقوى للسياسات الأوروبية، والتي اتخذت من الدين ستارا أيديولوجياً، ثم لاحقاً من "المهمة الحضارية"، لتبرير أهدافها التوسعية، وصولاً إلى فجر الحقبة الاستعمارية الحديثة التي شهدت إخضاعاً شبه كامل للعالم الإسلامي للمصالح الاقتصادية الأوروبية [أنظر: Owen, The Middle East in the World Economy].

ولتحقيق أهداف البحث، تم تقسيمه إلى أربعة مباحث رئيسية، بالإضافة إلى هذه المقدمة والخاتمة.

يتناول المبحث الأول الإرث الديني العميق للحروب الصليبية، ليس فقط كحدث عسكري، بل كظاهرة ثقافية واجتماعية شكلت الذاكرة الجماعية للطرفين، مع تحليل الدوافع الأوروبية الداخلية (السياسية والإقطاعية) والدور الاقتصادي المبكر للمدن الإيطالية.

ويستعرض المبحث الثاني عصر الاستكشافات الجغرافية كنموذج لتزاوج الدافع الديني (امتداداً لروح "الاسترداد") بالدافع الاقتصادي (كسر الاحتكار التجاري الثلاثي)، وكيف تم إضفاء الشرعية على هذا التوسع عبر المراسيم البابوية

المجلة العلمية لكلية التربية / جامعة سرت/المجلد (5) العدد (1)
Faculty of Education journal / Sirte University (Vol (5) No (1))
Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v5i1.3817)
ISSN : 3740-2791
26 يناير 2026

وتطبيقه باستراتيجيات بحرية للسيطرة على المضائق التجارية [للمزيد حول هذه النقطة، أنظر: Subrahmanyam, The Career and Legend of Vasco da Gama].

أما المبحث الثالث فيحلل بزوغ القوى الأوروبية الجديدة (البروتستانتية والمركنتيلية)، وتحول الدين من "هدف" إلى "أداة" سياسية براغماتية عبر إساءة استخدام نظام "الامتيازات العثمانية" وذريعة "حماية الأقليات" في إطار "المسألة الشرقية" [أنظر: Masters, Christians and Jews in the Ottoman Arab World].

وأخيراً، يركز المبحث الرابع على القرن التاسع عشر باعتباره قرن هيمنة الدافع الاقتصادي المطلق، مدفوعاً بمتطلبات الثورة الصناعية، وكيف تم استبدال الغطاء الديني بغطاء أيديولوجي علماني (الاستشراق و"المهمة الحضارية")، وتطبيق الهيمنة عبر أدوات جديدة كـ "دبلوماسية الديون" والاحتلال العسكري المباشر [أنظر: Hobsbawm, The Age of Empire].

المبحث الأول: الجذور الدينية للصراع–إرث الحروب الصليبية وتأسيس الذاكرة

على الرغم من أن هذا البحث يركز على الفترة التي تبدأ من القرن الخامس عشر، إلا أنه من المستحيل فهم هذه الفترة دون العودة إلى الحدث التأسيسي الأبرز في ذاكرة الصراع بين الإسلام والغرب: الحروب الصليبية (1096_1291م) لقد شكّلت هذه الحروب منعطفاً حاسماً، وكرّست صورة نمطية للآخر في المخيلة الأوروبية والإسلامية على حد سواء، وهي صورة استمرت آثارها لقرون طويلة [أنظر: Armstrong, Holy War]. فالحروب الصليبية، كما يوضح كريستوفر تيرمان، لم تكن مجرد حدث عسكري، بل كانت "ظاهرة ثقافية واجتماعية ودينية" شاملة، أعادت تعريف مفهوم "المسيحية" (Christendom) في مواجهة "الآخر" المسلم [أنظر: Tyerman, God's War].

وكما هو معروف تاريخياً كحدث، فإن دعوة البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت عام

1095م لم تكن مجرد دعوة لتحرير الأراضي المقدسة. لقد جاءت في سياق أوروبي معقد؛ فالكنيسة كانت تسعى لترسيخ سلطتها الروحية والزمنية. كانت هذه الفترة تشهد ذروة ما يُعرف بـ "الإصلاح الغريغوري" والصراع على "التقليد العلماني"، حيث سعى البابوات لإثبات تفوق سلطتهم على سلطة الملوك والأباطرة. كانت الدعوة لحرب مقدسة بقيادة البابا مباشرة، وبدون تدخل الملوك، هي أداة مثالية لترسيخ هذه السلطة البابوية كقوة فاعلة على مستوى أوروبا كلها [أنظر: Riley-Smith, The Crusades: A Short History].

المجتمع الأوروبي ذاته كان يعاني من "عنف داخلي" مُستشرٍ. كما أن نظام الإقطاع الذي يورث الابن الأكبر فقط

المجلة العلمية لكلية التربية / جامعة سرت/المجلد (5) العدد (1)
Faculty of Education journal / Sirte University (Vol (5) No (1))
Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v5i1.3817)
ISSN : 3740-2791
26 يناير 2026

(Primogeniture) خلق طبقة واسعة من الفرسان "الذين لا أرض لهم". فكانت الدعوة "لقتال الكفار" وسيلة عبقرية لتوحيد أوروبا المسيحية المتصارعة وتوجيه طاقاتها العسكرية الفائضة نحو عدو خارجي مشترك [فيشر، تاريخ أوربا العصور الوسطى، ص. 215].

لقد كانت الدوافع الدينية هي المحرك الأبرز في خطاب التعبئة لهذه الحروب. وُعد المشاركون بغفران الخطايا ومكانة الشهداء، واعتُبرت "حرباً عادلة" بل "مقدسة" [أنظر: Runciman, A History of the Crusades]. هذا الوعد بـ "الغفران الكامل" كان تطوراً لاهوتياً جديداً وفعالاً للغاية... لقد حولتهم الكنيسة من "خاطئين" إلى "جنود للمسيح" (Milites Christi) [أنظر: Riley-Smith, The Crusades: A Short History].

لكن خلف هذا الخطاب، كانت هناك دوافع أخرى لا تقل أهمية. فطبقة الفرسان رأت فيها فرصة للحصول على إقطاعيات وأراضٍ في الشرق، وهو دافع اقتصادي واجتماعي واضح. كما رأت المدن التجارية الإيطالية، وخاصة البندقية وجنوة وبيزا، في هذه الحروب فرصة ذهبية للسيطرة على طرق التجارة في شرق البحر المتوسط. لم تكتفِ هذه المدن بنقل الصليبيين، بل مولت حملاتهم مقابل امتيازات تجارية حصرية في الموانئ التي يتم الاستيلاء عليها [هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ص. 112].

في المقابل، لم ينظر العالم الإسلامي في البداية إلى هذه الحملات كتهديد حضاري شامل... لكن مع استمرار الاحتلال وتأسيس الممالك الصليبية، تبلور خطاب "جهادي" مضاد. وكما يوضح أمين معلوف، فإن الرد الإسلامي لم يكن فورياً، ولكنه تشكل تدريجياً كرد فعل على الوجود الصليبي [معلوف، الحروب الصليبية كما رآها العرب]. هذا الخطاب الجهادي المضاد... وصل إلى ذروته مع صلاح الدين الأيوبي [للمزيد حول هذه النقطة، أنظر: Hillenbrand, The Crusades: Islamic Perspectives].

الأهم من ذلك هو الإرث الذي تركته هذه الحروب. فمن ناحية، زادت من حدة العداء الديني ورسخت صورة "المسلم" كعدو للمسيحية [للمزيد حول هذه النقطة، أنظر: Daniel, Islam and the West]. ومن ناحية أخرى، وكما ذكر فيشر، فقد "مكنت الحروب الصليبية الشعوب الأوروبية من الاحتكاك بالحضارة الإسلامية وبالتالي انتقلت الحضارة العربية إلى الغرب" [فيشر، تاريخ أوربا العصور الوسطى، ص. 230]. هذا الاحتكاك كان اقتصادياً بالدرجة الأولى. ازداد نشاط التجارة، وتعرف الأوروبيون على سلع ومنتجات شرقية فاخرة كالتوابل والحرير والسكر. هذا الطلب المتزايد هو الذي سيخلق دافعاً اقتصادياً قوياً للبحث عن طرق للوصول إلى مصادر هذه السلع بشكل مباشر.

المبحث الثاني: عصر الاستكشافات–تزاوج الدافع الديني والاقتصادي (القرن 15و 16)

المجلة العلمية لكلية التربية / جامعة سرت/المجلد (5) العدد (1)
Faculty of Education journal / Sirte University (Vol (5) No (1))
Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v5i1.3817)
ISSN : 3740-2791
26 يناير 2026

يُعد القرن الخامس عشر بداية لمرحلة جديدة وحاسمة عُرفت بـ "عصر الاستكشافات الجغرافية"، والتي قادتها في البداية قوى شبه الجزيرة الأيبيرية: البرتغال وإسبانيا. في هذه المرحلة، نرى تزاوجاً واضحاً وصريحاً بين الدافع الديني والدافع الاقتصادي، ولم يكن هذا التزاوج وليد صدفة، بل كان امتداداً مباشراً لآلاف السنين من التاريخ الأيبيري.

كانت البرتغال وإسبانيا قد أنهتا للتو حروب "الاسترداد" (Reconquista) ضد الممالك الإسلامية في الأندلس، والتي تُوجت بسقوط غرناطة عام 1492م. هذا النصر العسكري، الذي استمر لقرون، كان مشبعاً بروح صليبية قوية. لقد تشكلت الهوية الوطنية والإثنية والدينية للبرتغاليين والإسبان حول فكرة "محاربة المسلم". لذلك، عندما بدأت هذه القوى بالتوسع خارج أراضيها، حملت معها نفس العقلية: عقلية الحرب الدينية [أنظر: حتى، تاريخ العرب]. وكما يصف المؤرخ الإسباني خافيير غارثيا دي كورتاسار، فإن "الانتقال من الاسترداد إلى الفتح (Conquista) كان طبيعياً؛ لقد كان ببساطة نقلاً لنفس المشروع عبر المحيط" [أنظر: García de Cortázar, Atlas de Historia de España].

الدافع الاقتصادي كان واضحاً ومباشراً: كسر احتكار المسلمين لتجارة التوابل والسلع الثمينة القادمة من الهند والشرق الأقصى. كان هذا "الاحتكار" ذا شقين... ومن هناك، كانت المدن الإيطالية، وتحديداً البندقية وجنوة، تحتكر الشق الأوروبي من التجارة [للمزيد حول هذه النقطة، أنظر: هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى]. كانت أوروبا تدفع "ثمناً ثلاثياً": ربح التاجر الهندي، وجمارك السلطان المملوكي، وربح التاجر البندقي. ومن هنا، نشأت فكرة الدوران حول إفريقيا للوصول إلى الهند مباشرة. كان هذا هدفاً اقتصادياً بحتاً قاده الأمير هنري الملاح (1394-1460م) في البرتغال، الذي أسس مدرسة "ساغرش" البحرية الشهيرة لتطوير تقنيات الملاحة ورسم الخرائط اللازمة لهذه المغامرة [الجوهري، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، ص. 88].

ولكن هذا الهدف الاقتصادي كان مغلفاً، بل ومندمجاً، بغلاف ديني كثيف. لقد نُظر إلى هذه الرحلات على أنها امتداد للحروب الصليبية. لم يكن هنري الملاح مجرد راعٍ للاستكشاف، بل كان أيضاً "الأستاذ الأعظم" لـ "فرسان المسيح"، وكانت سفنه تحمل شارة الصليب [أنظر: Boxer, The Portuguese Seaborne Empire].

سعى البرتغاليون، كما ذكر المؤرخون، إلى تطويق العالم الإسلامي من الجنوب. كان هناك هدف استراتيجي-ديني يتمثل في البحث عن مملكة "بريستر جون" (Prester John) المسيحية الأسطورية... كان الأمل هو التحالف مع هذه المملكة لفتح "جبهة ثانية" ضد العالم الإسلامي وتطويقه بالكامل [قاسم، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ص. 45]. هذا المزج بين "التوابل" و "المسيحيين" (Especiarias e Cristãos) كان الشعار غير الرسمي

المجلة العلمية لكلية التربية / جامعة سرت/المجلد (5) العدد (1)
Faculty of Education journal / Sirte University (Vol (5) No (1))
Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v5i1.3817)
ISSN : 3740-2791
26 يناير 2026

للمشروع البرتغالي.

وقد وفرت البابوية في روما الغطاء الشرعي والقانوني لهذا التوسع. ففي سلسلة من المراسيم البابوية الحاسمة، مثل "Dum Diversas" (1452) و " Romanus Pontifex" (1455)، منح الباباوات للبرتغاليين الحق الحصري في السيطرة على الأراضي المكتشفة في إفريقيا و "إخضاع المسلمين والوثنيين" واستعبادهم، في مقابل الالتزام بنشر الديانة الكاثوليكية [أنظر: Braudel, The Mediterranean and the Mediterranean World]. وبعد اكتشاف كولومبوس للعالم الجديد، جاء مرسوم "Inter Caetera" (1493) ولاحقاً "معاهدة توردیسیاس" (1494) التي قسمت العالم غير المسيحي بأكمله بخط وهمي بين إسبانيا والبرتغال [للمزيد حول هذه النقطة، أنظر: Subrahmanyam, The Career and Legend of Vasco da Gama].

لذلك، عندما وصل فاسكو دا غاما إلى كالكوت في الهند عام 1498م، لم يتصرف كمجرد تاجر يبحث عن صفقة. وكان رده الشهير: "جئنا بحثاً عن المسيحيين والتوابل". وكانت الحملات البرتغالية اللاحقة في المحيط الهندي، بقيادة القائد العسكري الوحشي ألفونسو دي ألبوكيرك، تتسم بعنف شديد ضد شبكات التجارة الإسلامية الراسخة. لم يكن الهدف مجرد المنافسة التجارية، بل كان "إبادة" التجارة الإسلامية.

لقد طبق ألبوكيرك استراتيجية "السيطرة على المضائق" (Choke Points)، فاحتل جزيرة سقطرى (1507)، وهرمز (1515) ... وغوا (1510) ... وملقا (1511) ... لقد هاجموا السفن غير المسلحة، وأحرقوا الموانئ... لفرض سيطرة عسكرية كاملة وإجبار الجميع على شراء "تصاريح" (Cartazes) للمرور [أنظر: Lewis, Islam and the West].

هذا العدوان المفاجئ... أدى إلى رد فعل من القوى الإسلامية. أدرك السلطان المملوكي قانصوه الغوري الخطر... وحققوا نصراً بحرياً ساحقاً في "معركة ديو" (1509)، والسبب الرئيسي كان تفوق المدفعية البحرية البرتغالية [أنظر: Crowley, Conquerors].

بعد سقوط المماليك، حاول العثمانيون... طرد البرتغاليين... لكنها واجهت صعوبات لوجستية هائلة ولم تنجح في كسر التفوق البحري البرتغالي بشكل حاسم [قاسم، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ص. 90]. [للمزيد حول الرد العثماني المفصل، أنظر: Özbaran, The Ottoman Response to European Expansion].

في هذه المرحلة، كما نرى، كان الدافعان، الديني والاقتصادي، وجهين لعملة واحدة. السيطرة الاقتصادية تمنح القوة اللازمة للمواجهة الدينية، والشرعية الدينية تبرر التوسع الاقتصادي والعسكري العنيف.

المجلة العلمية لكلية التربية / جامعة سرت/المجلد (5) العدد (1)
Faculty of Education journal / Sirte University (Vol (5) No (1))
Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v5i1.3817)
ISSN : 3740-2791
26 يناير 2026

المبحث الثالث: بزوغ القوى الأوروبية الجديدة والتنافس التجاري (القرن 17و 18)

مع القرن السابع عشر، دخلت قوى أوروبية جديدة على خط المنافسة. هذه القوى لم تكن القوى الأيبيرية الكاثوليكية (البرتغال وإسبانيا) التي قادت المرحلة الأولى، بل كانت القوى البروتستانتية الصاعدة في الشمال، تحديداً جمهورية هولندا المتحدة (الأراضي المنخفضة) وبريطانيا (إنجلترا لاحقاً)، بالإضافة إلى فرنسا الكاثوليكية التي كانت تنافس الجميع [أنظر: İnalcık & Quataert, An Economic and Social History of the Ottoman Empire].

كان صعود هذه القوى الجديدة، وخاصة هولندا وبريطانيا، مرتبطاً ببنيتها الاقتصادية المختلفة... كان دافعهم دينياً أيضاً، ولكن بشكل مختلف... فبصفتهم بروتستانت، كانوا في صراع مرير مع إسبانيا الكاثوليكية، وكان كسر احتكار إسبانيا والبرتغال للتجارة العالمية جزءاً من هذا الصراع. لكن دافعهم الديني تجاه الإسلام كان أقل "صليبية" وأكثر براغماتية.

خلال هذه الفترة، بدأت الكفة تميل بوضوح نحو الدافع الاقتصادي، وإن ظل الخطاب الديني حاضراً كأداة تبرير.

كانت الدولة العثمانية... لا تزال قوة عظمى... لجأت القوى الأوروبية إلى أسلوب مختلف، وهو التغلغل الاقتصادي "السلمي" عبر نظام "الامتيازات الأجنبية" (Capitulations) أو الامتيازات العثمانية) [أنظر: İnalcık & Quataert, An Economic and Social History of the Ottoman Empire].

هذه الامتيازات بدأت كمعاهدات صداقة وتجارة تمنحها الدولة العثمانية طواعية لقوتها (مثل الامتيازات الشهيرة التي منحها السلطان سليمان القانوني لفرانسوا الأول ملك فرنسا عام 1536)

وأيضاً كانت أداة دبلوماسية للعب القوى الأوروبية ضد بعضها البعض [أنظر: Masters, Christians and Jews in the Ottoman Arab World].

كانت هذه الامتيازات تمنح التجار الأوروبيين (المستأمنين) الأمان... والأهم أنها منحتهم "حصانة قضائية قنصلية"، أي الحق في أن يُحاكموا أمام قناصلهم ووفقاً لقوانين بلادهم، وليس أمام القاضي العثماني [عبد الكريم، دراسات في تاريخ العرب الحديث، ص. 54].

لكن مع مرور الزمن، ومع تزايد الضعف العسكري والاقتصادي العثماني في القرن الثامن عشر، تحولت هذه الامتيازات من "منحة" من القوي إلى "حق" للضعيف... الأخطر من ذلك هو إساءة استخدام "البراءات" (Berats)، وهي وثائق كان القناصل يبيعونها لرعايا السلطان من غير المسلمين... فتضعهم تحت "الحماية" الأوروبية... مما خلق طبقة وسطى (كومبرادور) لا تدين بالولاء للسلطان، بل للقوى الأجنبية، وأدى إلى تآكل سيادة

Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v5i1.3817)
ISSN : 3740-2791
26 يناير 2026

الدولة من الداخل [أنظر: Mansel, Levant].

لقد أصبحت النظرية "المركنتيلية" (Mercantilism) هي المهيمنة على الفكر الاقتصادي الأوروبي... [للمزيد حول تداعيات هذا النظام على الاقتصاد العثماني، أنظر: Quataert, The Ottoman Empire, 1700-1922]. وفي هذا السياق، ظهرت "شركات الهند الشرقية" (البريطانية EIC والهولندية VOC)، وهي شركات تجارية احتكارية مُنحت سلطات شبه دولاتية... فكان لها جيوشها الخاصة... وحق إعلان الحرب وعقد المعاهدات [أنظر: Owen, The Middle East in the World Economy]، و [أنظر: Robins, The Corporation that Changed the World].

أصبحت القنصليات الأوروبية في المدن العثمانية الكبرى... مراكز نفوذ اقتصادي وسياسي. كان التنافس بين بريطانيا وفرنسا على أشدّه للسيطرة على أسواق المشرق وتأمين طرق التجارة. فبريطانيا كانت مهتمة بشكل خاص بتأمين طريقها إلى الهند، "درة التاج البريطاني"... [قاسم، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ص. 150].

في هذه المرحلة، ومع تبلور ما عُرف بـ "المسألة الشرقية" (The Eastern Question) ... تم استخدام الدين ببراغماتية شديدة كذريعة للتدخل. [للمزيد حول هذا التحول في الإمبراطورية العثمانية المتأخرة، أنظر: Faroqhi, The Cambridge History of Turkey, Vol. 3].

بدأت القوى الأوروبية تتبنى دور "حامية الأقليات المسيحية" داخل الدولة العثمانية. ففرنسا... اعتبرت نفسها الحامية التاريخية للكاثوليك... وروسيا... نصّبت نفسها حامية لجميع الرعايا الأرثوذكس... وبريطانيا... دعمت الأقليات الأخرى كالدروز واليهود [فولر وليسر، الإسلام والغرب بين التعاون والمواجهة، ص. 67].

كان هذا التدخل، تحت غطاء ديني وإنساني، يهدف في جوهره إلى إضعاف السلطة المركزية العثمانية... وابتزاز المزيد من الامتيازات الاقتصادية [للمزيد حول هذه النقطة، أنظر: Masters, Christians and Jews in the Ottoman Arab World]. وخير مثال على ذلك هو التدخل الأوروبي (بقيادة فرنسا) في جبل لبنان عام 1860 عقب الفتنة الطائفية بين الدروز والموارنة... [أنظر: Mansel, Levant].

وهكذا، مهد القرن الثامن عشر الطريق للقرن التاسع عشر. لقد تم "تليين" الدولة العثمانية وإضعافها من الداخل عبر الامتيازات الاقتصادية والقضائية، وتم خلق المبررات "الأخلاقية" (الدينية) للتدخل، تمهيداً للمرحلة التالية: مرحلة السيطرة المباشرة.

المجلة العلمية لكلية التربية / جامعة سرت/المجلد (5) العدد (1)
Faculty of Education journal / Sirte University (Vol (5) No (1))
Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v5i1.3817)
ISSN : 3740-2791
26 يناير 2026

المبحث الرابع: فجر الإستعمار–هيمنة الدافع الإقتصادي (القرن التاسع عشر)

يمثل القرن التاسع عشر ذروة التحول نحو هيمنة الدافع الاقتصادي، وبداية عصر الاستعمار الأوروبي المباشر للعالم الإسلامي. وإذا كان القرنان السابع عشر والثامن عشر شهدا تغلغلاً "ناعماً" عبر التجارة والامتيازات، فإن القرن التاسع عشر هو قرن "السيطرة الخشنة" (Hard Power) عبر الديون والبنادق والسفن الحربية.

كانت الحملة الفرنسية على مصر (1798–1801) بقيادة نابليون بونابرت، حدثاً مفصلياً بكل المقاييس. لم تكن هذه الحملة حملة صليبية بالمعنى التقليدي، بل كانت أول عملية غزو "حديثة". هدفها الأساسي كان استراتيجياً واقتصادياً: (1) قطع طريق الإمدادات البريطانية إلى الهند، المنافس اللدود لفرنسا. (2) تحويل مصر إلى مستعمرة فرنسية غنية [عبد الكريم، دراسات في تاريخ العرب الحديث، ص. 92]. حتى الخطاب الذي استخدمه نابليون عند وصوله كان حديثاً بشكل لافت؛ فهو لم يخاطب المصريين كـ "وثنيين" يجب تنصيرهم، بل كـ "شعب" يجب تحريره من طغيان المماليك [أنظر: الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار] و [للمزيد حول تحليل خطاب نابليون، أنظر: Cole, Napoleon's Egypt].

والأخطر من ذلك، أن الحملة جلبت معها جيشاً من العلماء والفنانين (معهد مصر)، الذين قاموا بدراسة مصر وتسجيل كل شيء فيها، وهو ما نتج عنه كتاب "وصف مصر". وكما يجادل إدوارد سعيد، فإن هذه الحملة دشنت لـ "الاستشراق" (Orientalism) الحديث... لقد تم "أرشفة" مصر وتصنيفها، وتحويلها إلى "موضوع" للدراسة والتحكم الأوروبي... وتم تصوير الشرق كعالم جامد، حسي، متخلف، وفاقد للعقلانية، وهو بالتالي بحاجة إلى "الحضارة" الأوروبية [أنظر: Said, Orientalism].

لقد كان هذا هو الغطاء الأيديولوجي الجديد الذي سيهيمن على القرن التاسع عشر: "المهمة الحضارية" (Mission Civilatrice) أو "عبء الرجل الأبيض" (The White Man's Burden). لقد حل هذا الخطاب العلماني–العقلاني محل الخطاب الديني القديم [أنظر: حوراني، تاريخ الشعوب العربية].

طوال القرن التاسع عشر، أدت الثورة الصناعية في أوروبا إلى خلق "جوع" هائل لاثنين:

المواد الخام: المصانع البريطانية... كانت بحاجة ماسة للقطن الخام. أصبحت مصر والهند المصدرين الرئيسيين [Hobsbawm, The Age of Empire, ص. 250].

الأسواق: تم إغراق أسواق العالم الإسلامي... بهذه المنتجات. والنتيجة كانت كارثية: دمار الصناعات الحرفية والنسيجية المحلية... مما حول هذه الدول من "منتجة" إلى مجرد "مستهلكة" [أنظر: Owen, The Middle East

Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v5i1.3817)
ISSN : 3740-2791
26 يناير 2026

in the World Economy] و [أنظر: Issawi, An Economic History of the Middle East and North Africa].

أصبح العالم الإسلامي... هدفاً رئيسياً لهذا التوسع الاقتصادي الإمبريالي [للمزيد حول العلاقة بين الثورة الصناعية والإمبريالية، أنظر: Landes, The Wealth and Poverty of Nations]. وتسارعت وتيرة التغلغل الأوروبي عبر وسائل أصبحت أكثر تعقيداً:

القروض المالية (دبلوماسية الديون): كان هذا السلاح الأكثر فتكاً. تم إغراق دول مثل مصر (في عهد الخديوي إسماعيل) ... وتونس والدولة العثمانية بقروض ضخمة بفوائد فاحشة...

في تونس: تم فرض "الكوميسيون المالي الدولي" (1869) ... مما مهد لاحتلال فرنسا لها عام 1881.

في الدولة العثمانية: أدى الإفلاس عام 1875 إلى إنشاء "إدارة الدين العام العثماني" (1881) ... وكانت دولة داخل دولة [للمزيد حول هذا الموضوع، أنظر: Quataert, The Ottoman Empire, 1700-1922] و [Pamuk, Uneven Centuries].

في مصر: أدى عجز إسماعيل عن السداد إلى إنشاء "صندوق الدين" (1876) والرقابة الثنائية [مجموعة من أعضاء هيئة التدريس بجامعة قطر، تاريخ العرب الحديث، ص. 135].

المشاريع الكبرى (الامتيازات):

قناة السويس (1869): أصبحت "شريان حياة" الإمبراطورية البريطانية إلى الهند. كان تأمين هذا الممر المائي هو الهاجس الأكبر لبريطانيا.

السكك الحديدية: تم مد خطوط السكك الحديدية (مثل خط برلين-بغداد) ... كانت تهدف بالدرجة الأولى إلى... نقل المواد الخام... وتسهيل حركة الجيوش [الجوهري، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، ص. 176].

الاحتلال العسكري المباشر: عندما فشلت "الدبلوماسية المالية" أو واجهت مقاومة شعبية (مثل الثورة العرابية في مصر) ... جاء التدخل العسكري المباشر.

احتلت فرنسا الجزائر (1830) ...

احتلت فرنسا تونس (1881) ...

احتلت بريطانيا مصر (1882) ...

وتبع ذلك احتلال السودان (بريطانيا 1898)، وليبيا (إيطاليا 1911)، والمغرب (فرنسا وإسبانيا 1912).

لقد تم تبرير كل هذا بذرائع مختلفة... لكن الجوهر كان واحداً: السيطرة الاقتصادية والاستراتيجية الكاملة [أنظر: Issawi, An Economic History of the Middle East and North Africa]. [للحصول على سرد مفصل لهذا التوسع، أنظر: Pakenham,

Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v5i1.3817)
ISSN : 3740-2791
26 يناير 2026

The Scramble for Africa]. لقد أصبح العالم الإسلامي، بحلول نهاية القرن التاسع عشر، مجرد "ملحق" للاقتصاد الرأسمالي الأوروبي [أنظر: زيادة، العالم العربي الحديث].

رابعاً: الخاتمة والنتائج

بناءً على التحليل الموسع المقدم في هذا البحث، يمكن استخلاص النتائج التالية:

الطبيعة المركبة والمتغيرة للدوافع: لم تكن العلاقة بين الإسلام والغرب تحركها دوافع أحادية (دينية فقط أو اقتصادية فقط)، بل كانت هناك دائماً ضفيرة متداخلة من الأسباب. لكن ثقل كل دافع تغير بشكل كبير عبر الزمن.

الدين كإطار ومحرك أولي: شكلت الحروب الصليبية الإطار الديني الأولي للصراع، ورسخت عداءً تاريخياً استمر تأثيره لقرون. في هذه المرحلة، كان الدافع الديني هو المهيمن في الخطاب العام... رغم تداخله مع مصالح اقتصادية مبكرة للمدن الإيطالية.

تزاوج الدوافع في عصر الاستكشاف: شهد القرنان الخامس عشر والسادس عشر اندماجاً كاملاً بين الدافع الديني (نشر المسيحية كاستمرار للحروب الصليبية) والدافع الاقتصادي (كسر الاحتكار التجاري الإسلامي)، وقد وفرت البابوية الغطاء الشرعي لهذا الاندماج.

الاقتصاد كمحرك أساسي والدين كغطاء (المركنتيلية): في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ومع صعود القوى الأوروبية الجديدة، أصبح التنافس التجاري والاقتصادي (المركنتيلية) هو المحرك الأساسي... بينما تم استخدام الدين كأداة سياسية براغماتية (عبر نظام "حماية الأقليات") لتبرير التدخل.

هيمنة الدافع الاقتصادي في العصر الاستعماري: شهد القرن التاسع عشر هيمنة شبه كاملة للدافع الاقتصادي، مدفوعاً بمتطلبات الثورة الصناعية... وتم ابتكار غطاء أيديولوجي جديد هو "المهمة الحضارية" ليحل محل الخطاب الديني، ولتبرير السيطرة المباشرة عبر أدوات جديدة كالدبلوماسية المالية والمشاريع الكبرى والاحتلال العسكري.

وتشير الأبحاث الحديثة في دراسات ما بعد الاستعمار إلى أن هذا الإرث من الهيمنة الاقتصادية قد خلق اختلالات هيكلية عميقة في اقتصادات دول العالم الإسلامي، وكرس تبعيتها للمراكز الرأسمالية الغربية [أنظر: Owen, The Middle East in the World Economy, 1800-1914]. هذا الشعور التاريخي بالظلم والغبن، الاقتصادي في جوهره، يتم التعبير عنه أحياناً في العصر الحديث بلغة دينية، مما يؤكد أن التداخل بين الدافعين الديني والاقتصادي لا يزال يشكل ملامح العلاقة بين الإسلام والغرب حتى يومنا هذا، وإن بأشكال وأدوات مختلفة.

Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v5i1.3817)
ISSN : 3740-2791
26 يناير 2026

خامساً: قائمة المصادر والمراجع

1. فيشر، هـ. أ. ل. (1976). تاريخ أوربا العصور الوسطى. (ترجمة محمد زيادة والسيد الباز العريني). القاهرة: دار المعارف.

2. فولر، غراهام، وليسر، إيان. (1997). الإسلام والغرب بين التعاون والمواجهة (ط1). (ترجمة شوقي جلال). القاهرة: الأهرام للترجمة والنشر.

3. الجوهري، يسري. (د.ت.). الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية. الإسكندرية: منشأة المعارف.

4. مجموعة من أعضاء هيئة التدريس بقسم التاريخ بجامعة قطر. (1990). تاريخ العرب الحديث. الدوحة: مؤسسة العيد.

5. قاسم، جمال زكريا. (1997). تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر – المجلد الأول (عصر التوسع الأوروبي الأول 1507-1840). القاهرة: دار الفكر العربي.

6. هايد، ف. (1994). تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى – الجزء الرابع. (ترجمة أحمد رضا). القاهرة: الهيأة المصرية العامة للكتاب.

7. عبد الكريم، أحمد عزت. (1970). دراسات في تاريخ العرب الحديث. القاهرة: دار النهضة العربية.

8. حوراني، ألبرت. (1991). تاريخ الشعوب العربية. (ترجمة كريم عزقول). بيروت: دار النهار للنشر.

9. Said, Edward W. (1978). Orientalism. New York: Pantheon Books. (يُنظر للترجمة العربية: سعيد، إدوارد. (1981). الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء. (ترجمة كمال أبو ديب). بيروت: مؤسسة الأباحث العربية).

10. Armstrong, Karen. (2001). Holy War: The Crusades and Their Impact on Today's World. New York: Anchor Books.

11. Runciman, Steven. (1951-1954). A History of the Crusades (3 vols.). Cambridge: Cambridge University Press.

12. معلوف، أمين. (1983). الحروب الصليبية كما رآها العرب. (ترجمة عفيف دمشقية). بيروت: دار الفارابي.

Doi (https://doi.org/10.37375/foej.v5i1.3817)
ISSN : 3740-2791
26 يناير 2026

13. Hitti, Philip K. (1957). History of the Arabs: From the Earliest Times to the Present. London: Macmillan. (يُنظر للترجمة العربية: حتى، فيليب. (2008). تاريخ العرب. (ترجمة إدوارد جرجي وجبرائيل جبور). بيروت: دار الكشاف).

14. Braudel, Fernand. (1972). The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II. (Trans. Siân Reynolds). New York: Harper & Row.

15. Lewis, Bernard. (1993). Islam and the West. New York: Oxford University Press.

16. İnalcık, Halil, & Quataert, Donald (Eds.). (1994). An Economic and Social History of the Ottoman Empire, 1300-1914. Cambridge: Cambridge University Press.

17. Hobsbawm, Eric J. (1987). The Age of Empire: 1875-1914. New York: Pantheon Books.

18. Owen, Roger. (1981). The Middle East in the World Economy, 1800-1914. London: Methuen.

19. Mansel, Philip. (2010). Levant: Splendour and Catastrophe on the Mediterranean. London: John Murray.

20. الجبرتي، عبد الرحمن. (د.ت.). عجائب الآثار في التراجم والأخبار. بيروت: دار الجيل.

21. Issawi, Charles. (1982). An Economic History of the Middle East and North Africa. New York: Columbia University Press.

22. زيادة، نقولا. (1986). العالم العربي الحديث: دراسة في تطوره السياسي والاقتصادي. بيروت: دار الشروق.

23. Tyerman, Christopher. (2006). God's War: A New History of the

Portuguese Seaborne Empire, 1415-1825. New York: Alfred A. Knopf.

29. Subrahmanyam, Sanjay. (1997). The Career and Legend of Vasco da Gama. Cambridge: Cambridge University Press.

30. Crowley, Roger. (2015). Conquerors: How Portugal Forged the First Global Empire. New York: Random House.

31. Özbaran, Salih. (1994). The Ottoman Response to European Expansion: Studies on Ottoman-Portuguese Relations in the Indian Ocean and Ottoman Administration in the Arab Lands during the Sixteenth Century. Istanbul: Isis Press.

32. Masters, Bruce. (2001). Christians and Jews in the Ottoman Arab World:

Crusades. Cambridge, MA: Belknap Press of Harvard University Press.

24. Riley-Smith, Jonathan. (1987). The Crusades: A Short History. New Haven: Yale University Press.

25. Hillenbrand, Carole. (1999). The Crusades: Islamic Perspectives. Edinburgh: Edinburgh University Press.

Daniel, Norman. (1960). Islam .26 and the West: The Making of an Image. Edinburgh: Edinburgh University Press. (يُنظر للترجمة العربية: دانيال، نورمان. (1994). الإسلام والغرب: صناعة صورة. (ترجمة رضوان السيد). بيروت: دار المدار الإسلامي).

27. García de Cortázar, Fernando. (2005). Atlas de Historia de España. Barcelona: Planeta.

28. Boxer, C. R. (1969). The

Some Are So Rich and Some So Poor? New York: W.W. Norton.

37. Pakenham, Thomas. (1991). The Scramble for Africa, 1876-1912. New York: Random House.

38. Cole, Juan. (2007). Napoleon's Egypt: Invading the Middle East. New York: Palgrave Macmillan.

39. Pamuk, Şevket. (2018). Uneven Centuries: Economic Development of Türkiye since 1820. Princeton: Princeton University Press.

The Roots of Sectarianism. Cambridge: Cambridge University Press.

33. Robins, Nick. (2012). The Corporation that Changed the World: How the East India Company Shaped the Modern Multinational. London: Pluto Press.

34. Quataert, Donald. (2005). The Ottoman Empire, 1700-1922. (2nd ed.). Cambridge: Cambridge University Press.

35. Faroqhi, Suraiya (Ed.). (2006). The Cambridge History of Türkiye, Vol. 3: The Later Ottoman Empire, 1603-1839. Cambridge: Cambridge University Press.

36. Landes, David S. (1998). The Wealth and Poverty of Nations: Why